

إنتشار حركة التأليف في الجزائر

المحاضرة السادسة:

إن أغلب الإنتاج الفكري من التأليف خلال العهد العثماني يكاد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجالات الأدبية، ولا شك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كون القرآن والحديث المنبع الذي يستند منه الجزائريون كل ألون تفكيرهم وأنماط حديثهم، حيث تميزت العلوم بالتقليد والحفظ والتكرار، وقد حاول عبد الكريم الفلون صاحب كتاب منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية الثورة على الجمود الفكري؛ لأن فقهاء الجزائر خلال القرن الأول من التواجد العثماني نادوا بتقديم الاجتهاد العقلي " الدراية " (الدراسات الاستكشافية القائمة على العقل) على التقليد " الرواية " فقد كانوا يرددون أقوال المتقدمين ويحفظونها حفظا سطحيا لا عقل فيه ولا تفكير ويتظاهرون بالحفظ وقوة الحافظة، فقد كان أحفظ الناس هو أعلم الناس ويوصف أحمد المقرئ بأنه كان أحفظ أهل زمانه ولقب بـ: حافظ المغرب الأوسط.

فظاهرة الحفظ والتقليد جمدت الإنتاج العلمي في كل العلوم، وكان ابن العنابي من أوائل الفقهاء الذين دعوا إلى الثورة على الجمود العقلي وسيطرة التخلف على التعليم وأهله؛ بل دعى إلى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية، ذلك لأن أوروبا في تلك الفترة كانت تعيش عصرا من النهضة (عصر التنوير).

كما دعى إلى الحد من نشاط الدراويش الذين أضروا بالمجتمع حسب رأيه، وهو مؤلف كتاب السعي المحمود في نظام الجنود. وبناء على ذلك يعتبر العهد العثماني فقيرا من حيث الإنتاج الثقافي والاهتمام بالعلوم والفنون، حيث تفرغ العلماء إلى العلوم الشرعية والآداب والتواريخ المحلية، ولكن عنايتهم بتدوين الطب والحساب والفلك قليلة، وما كان شائعا من علوم وفنون لا يخرج عن التقليد ولم يكن ممارسوه يتمتعون بالإستقلالية في الفكر والعقل وروح الإبداع، وهو ما جعل الرحالة الأجانب الذين عاشوا في تلك الفترة يحكمون حكما قاسيا على علماء الجزائر ويتهمونهم بالسحر والشعوذة والتخلي عن تراث أجدادهم من علوم وفنون شاعت في التراث العباسي بالمشرق والعصر الأموي بالأندلس.

وكان ينظر إلى المهتم بهذه العلوم على أنه شاذ عن روح العصر والمجتمع وكتب ابن خلدون وهو أحد فقهاء وعلماء الجزائر آنذاك بعد أن اطلع على كتاب في الطب مترجم إلى العربية: هو كتاب عجيب التأليف حسن الصنيع لولا أنه محشو كفرا تذل في الأقدام يجب التحذير منه، وهذا يدل على تراجع المستوى العلمي لعلماء الجزائر في هذه الفترة، والذي كان نتيجة حتمية لتقص إطلاعهم على جديد العلم والبحث العلمي المتطورة في بقاع أخرى من الأرض.